

المرأة

في الأوربيين العربى والإنجليزى
للأستاذ نحرى أبو السعود

للمرأة أثرها البين في كل مجتمع وبالتالي في أدب ذلك المجتمع ، بل إن مكانتها في المجتمع وأثرها في الأدب أوضح دليل على مدى رقى الأمة . وأول ما نصادف من فرق بين تاريخي المرأة العربية والمرأة الانجليزية أن مكانة الأولى تبدأ رفيعة وتظل كذلك حيناً ثم تسير في انحلال مستمر ، بينما تاريخ الثانية هو تاريخ رقى مطرد الى الوقت الحاضر

كانت للمرأة العربية منزلة سامية وأثر بعيد في حياة الجاهليين والمسلمين في صدر الاسلام زادها الاسلام تأكيداً ، ويتضح ذلك جلياً في عظام الأعمال التي قامت بها المرأة في ظهور الاسلام وانتشاره والشادات التي تبعت ذلك ؛ فذاك عصر حافل بأسماء فضليات النساء اللاتي تركن أثرهن في سير الحوادث وفي الأدب ، وفي ذلك العصر احترفت المرأة شتى الأعمال كالطب والتدريس في الشرق وفي الأندلس . ومما له دلالة على مكانة المرأة إذ ذاك أن كبار الرجال كانوا يفخرون بالانتساب الى أسهاتهم وعصبيتهم ، وكانوا يلقبون بـ ابن هند وابن عائشة وابن ذات النطاقين في مجال التبجيل والمدح ؛ وكان للزوجة رأي مسموع ، يشاورها زوجها قبل الاقدام على عمل ، وآثار ذلك في الأدب عديدة ؛ وقد جرت عادة كثير من الشعراء على تسجيل تلك الشاورات في أشعارهم يبدأونها بقولهم : « وقائلة ... » .

ذلك عصر المرأة العربية الذهبي في الأدب ، ضربت فيه في الشعر وتقده وبجالسه وفي الخطابة بسهم وافر . وكان في طليمة الأدبيات والبلغات بنات الخلفاء والأمراء ، ولتقتصر من المديونات اللاتي تبفن في هذا العصر الطويل على ذكر الخنساء ولىلى الأخيلية ولىلى بنت طريف وعلية بنت الهمدي في الشرق ، وولادة بنت المستكفي وحمدونة بنت زياد في الأندلس فلما اتسمت المملكة الاسلامية واختلطت فيها الأجناس وتكاثرت الجوارى واستفحل التسرى وفشا الترف واستحل

والاشترائية الوطنية تقوم في جوهرها على الفكرة المنصيرية ، وعلى الاعتزاز بالجنس ؛ وقد بث الفلو في فهم هذه المنصيرية إلى الشعب الألماني روحاً عنصرية قوية تقوم من بعض الوجوه على خصومة الجنس ؛ ومن ثم فإن الغرباء ، ولا سيما الذين تنم عليهم ألوانهم من الشعوب السامية والشرقية يشعرون بأنهم في جو غير ودي . وقد لا يتخذ هذا الشعور أية مظاهر مادية ، ولكن ما يلقاه الغريب من مظاهر الأدب والمجاملة يشوبه غالباً شيء من الخشونة والجفاء ؛ وقد سميت هذه الملاحظة من كثير من الأوربيين والأمريكيين الذين تجولوا في ألمانيا . على أنه يمكن أن يقال إن الأجنبي يشعر رغم هذه الظاهرة التي تمازجها الصراحة بأنه في جو أكثر قبولاً مما يأنسه في فرنسا من مظاهر يمازجها الرياء في كل شيء .

ومنشن غنية بالمتاحف الأثرية ؛ وفي متحف قصر «الريزدانس» وهو قصر ملوك بافاريا السابقين ، مجموعات بديعة من الصور والأثاث ؛ وفي المتحف الوطني مجموعات زاهرة من الأثاث والأسلحة والأزياء والصور الزيتية ؛ وتوجد عدة متاحف هامة أخرى أشهرها المتحف الفني الذي يعتبر أعظم متحف في العالم من نوعه . ولا غرو فقد كانت منشئ حتى الحرب الكبرى عاصمة لمملكة بافاريا ، وكانت مقر ملكية عظيمة لبنت مدى قرنين تسيطر على ألمانيا الجنوبية ؛ وهي ما زالت تعتبر عاصمة ألمانيا الثانية من الوجهة التاريخية والمنوية

وتتمتع منشئ بموقع جغرافي بديع في هضاب الألب البافارية ، وعلى مقربة من الغابة السوداء ؛ وقد جعلها موقعها مركزاً هاماً للسياحة في ألمانيا الجنوبية ، ولقد كانت المدينة حين زرتها تموج بمجموع غفيرة من السياح من سائر الأنحاء ولا سيما البلدان الشمالية مثل السويد والنرويج والدانمارك وهولندة

هذه صور أطلتها للملاحظة والتأمل ؛ بيد أنه يمكن أن يقال رغم كل شيء إن السائح يلقى في ألمانيا كثيراً من حسن الوفادة . وقد كان لنا وضعته الحكومة الألمانية من التسهيلات بالنسبة لسالة العملة وتخفيض أجور السفر أكبر الأثر في تقدم السياحة في ألمانيا

يستمر ويستفعل حتى يكون فيه القضاء الأخير على الخلق العربي وعلى مكانة المرأة وعلى المجتمع عامة ، ترى المجتمع الإنجليزي لا يلبث أن يتحرر من تلك النوبة الطارئة ، وينصب كبار الكتاب — أمثال ستيل وأديسون وجونسون — أنفسهم لتطهير الأدب ورفع مستوى المرأة ، وهي حركة عديدة الثيل في الأدب العربي : فبدل أن ينصرف أدباء العصر العباسي الترف إلى إصلاح كهذا الإصلاح الحميد تهالك شطر منهم على مفاسد ذلك العصر واعتزل شطر منهم قليل وتوفر على نظم أشعار الزهد

وأثر المرأة في أدب مجتمعا مزدوج : فنه ما يقوله الرجل متأثراً بوجها ، ومنه ما تنتجه هي ذاتها . وتتساوى المرأة العربية والإنجليزية من جهة الإنتاج في تقصيرها عن الرجل وضآلة أثرها في الأدب إذا قيس بأثر الرجل في شتى أغراض القول ؛ غير أن المرأة الإنجليزية تفوق العربية في كثرة إنتاجها الأدبي ، وكذلك في كثرة ما أنشأ الرجل حولها من أدب ، لظروف مساعدة أحاطت بتاريخها وحُرمتها المرأة العربية في خير عصورها : من انتشار التعليم العام والطباعة والصحف ، ووجود فن من فنون الأدب في الإنجليزية دون لغة المضاد هو القصة

فالقصة القروية أو المثلة التي تدرس المجتمع والنفس الإنسانية سبب كبير من أسباب تكاثر الأدب المكتوب حول المرأة : إذ لا غنى ثمت عن درس المرأة بجانب الرجل سواء بسواء ووصف أعمالها وميولها وأثرها في سير الحوادث ، ومن ثم زخرت روايات شكبير ومعاصريه ، وقصص سكوت ودكنز ومريدث وهاردي وأضرابهم بشتى الصور لمختلف عناصر النساء ، ومثبان طبقاتهن ومتعدد طبائعهن ، وقد حرمت المرأة العربية هذه الدراسة الأدبية حرماناً تاماً

والقصة من جهة أخرى سبب كبير من أسباب تكاثر الأدب الذي تنفثه المرأة ذاتها ، لأنها تلائم طبع المرأة أكثر مما يلائم نظم الشعر الذي هو أشبه بالرجل ، لأنه يحتاج إلى قوة وثقافة وشمول نظرة لا تتمق لكثير من النساء . أما القصة التي تدرس الحياة الاجتماعية وتصف الحركات والسكنات وتخصي التفاصيل وتتبع الحوادث ، فتجد فيها المرأة خير مجال للتعبير عن خلجاتها ومشاهداتها . زد على ذلك أن للمرأة من لطف النفس ودقة الملاحظة ما يمكنها من فهم الآخرين والأخبار والالام بنوازعهم

ما حرم من المفسد ، دب ديب الفساد في المجتمع كله ، وأخذت حالة المرأة خاصة في انحطاط شديد مستمر : وهنت رابطة الأسرة ، وتنوسيت أوامر الدين التي تعلل مكانة المرأة وحقوقها ، وأهمل تعليمها ، وشدد عليها الحجاب حتى انفصلت عن عالم الأحياء ، ففلاتني أثرها في المجتمع وفي الأدب ، فلم يكدر يذكر التاريخ اسم امرأة عظيمة ذات أثر في حياة الأمة أو أديها

أما مكانة المرأة الإنجليزية في المجتمع فبدأت كما نراها في قصص تشوسر وروايات شكبير على درجة من الرق عموسة : فهي في قصص تشوسر تبارى الرجل في الأعمال العامة ؛ وفي روايات شكبير تصوير لنساء على جانب عظيم من القدرة والطموح والسمو . وليس أدل على ارتفاع مكانة النساء في ذلك العهد من قبول الشعب إليزابث — وهي بعد في حدايتها — ملكة عليه دون تردد ، وإبلائه إياها من الولاء ما لم يوله غيرها من الملوك ، وإظهارها هي من الحكمة السياسية ما بذت به الفحول . وازن ذلك بما كان من ارتفاع الناس في عهد انحطاط المرأة العربية السالف ذكره ، حين وليت شجرة الدر عرش مصر ، حتى بعث الخليفة العباسي يوبخ أسراء مصر ويتوعددهم بالويل والثبور إن لم يتضحوا ذلك العار ، على حين لم يحرك أسلافه ساكناً يوم ولي نفس العرش عبدٌ خصي

واطررد رق المرأة الإنجليزية باطراد رق المجتمع الإنجليزي ، وتزايد حظها من التعليم . وفي القرن الثامن عشر زاد انتفاها إلى الأدب وظهرت الصحف فأقبلت على قراءتها ، وانصرفت همه بمض كتاب مصر إلى تحسين حالها وتقينها وترغيبها في الأدب . وظهرت المنتديات النسائية التي اشتهر بها ذلك القرن وكان يجتمع بها رجال الأدب . فلما كان القرن التاسع عشر طفرت حالة المرأة طفرة عظيمة في طريق التقدم الاجتماعي والأدبي بانتشار التعليم العام ومشاركة المرأة الرجل في كثير من الحقوق السياسية والأعمال اليومية ، فلا غرو إن تناظم أثر المرأة في الأدب الإنجليزي ، وتدفع لإنتاجها في عالمي الشعر والنثر

ولقد اعترضت هذا الرق فترة انحطاط في القرن السابع عشر ترجع إلى انتشار الترف والفساد الخلق اللذين صحبا عودة الملكية الإنجليزية التي كانت لاجئة إلى فرنسا ، وهذا شبيه بالتلف الذي أدخله الفرس في المجتمع العباسي ؛ ولكن يئنا نرى هذا الأخير

أعنى إذا ما جارتى خرجت حتى يوارى جارتى الخدر
وقول أبي فراس :

ورحت أجزر رعى عن مجال تحدث عنه ربات الجبال
ارتدت هذه الرعاية الكريمة للمرأة تحقيراً وسخرية حين
فقد المجتمع ، فلم يستحي الشعراء أن يطلقوا فيها ألسنتهم ،
فمن قائل :

عسر النساء إلى مياسرة والشيء يسهل بعدما جمحا
وقائل :

ومن خبر الفواني فالنواني ضياء في بواطنه ظلام
وقائل :

وإن حلفت لا يخلف النأى عهدا

فليس المحضوب النبات يمين

وهو هجاء للجنس اللطيف استمرأه سافطو الهمة من الشعراء
وتنزه عنه الأدب الإنجليزي ، فاقصر على النسيب الرقيق والمداعبة
الرفيقة والدراسة العلمية البريئة لشئ الطباع والشخصيات النسوية
والنسيب هو مجال ظهور المرأة الأولى في الشعر ، وفيه أى
دليل على رقى المجتمع ومكانة المرأة فيه . وفي الأدبين العربى
والإنجليزى نسيب على غاية من سمو والنقاء ؛ وأكثر ما كان
ذلك في الأدب العربى في عهد ارتقاء مكانة النساء الاجتماعية ،
هناك كان شعر النسيب في جلته عفيف اللفظ تقي الإشارة صادق
الماطفة على خشونة وسذاجة في بعضه ، فلما كان عصر الترف
والفساد هوى النسيب إلى حضيض الشهوات وداخله التكلف
في الشموخ وفي اللفظ ، وخالطه من الفحش والنسيب بالذكر
ما تنزه عنه الشعر الإنجليزي

ففيها عدا فترة الفساد الملقى الوجيزة في التاريخ الإنجليزي التي
تقدم ذكرها ، يمتاز النسيب الإنجليزي بسمو العاطفة وطهارة
اللفظ والترفع عن ذكر الشهوات والتسامى عن الأوصاف الجسمية
التي تشغل حيزاً غير ضئيل من النسيب العربى ، فالشاعر الإنجليزي
يبدو جال محبوبته أمراً مفروغاً منه ، فان أشار إشارة عاجلة إلى
محاسنها فالى تقاء بشرتها أو لمة شعرها ، وإن عمد إلى التشبيه
فانما يشبه عينها بالسما سفاء أو صدرها بالدير نقاء وبعداً عن مثال
الرجال ، إلى غير ذلك مما هو أدخل في الأوصاف النفسية وأدل
على سمو الروحى ؟

نرى أوبر السعد

ومراميمهم ، وفضلاً عن هذا وذاك تستطيع المرأة في القصة أن
تعبّر على لسان غيرها عن نزعات الحب وأطواره تمبيراً لا يُستغنى
منها إن أرسلته شعراً

لذلك كله لم تكدر تظهر القصة وينتشر التعليم العام حتى ينبغ
في القرن الماضى جبهة من كبريات القصصيات بارين كبار قصصى
المصر الحديث ، وفي مقدمتهن جين أوستن وشارلوت برونتى
ومن جاسكل ؛ وفي هذا الفن ، فن القصص ، أنتجت المرأة
الإنجليزية أحسن ما أنتجت من أدب ، على حين كان الشعر هو
الفن الذى نبغت فيه المرأة العربية

ومن وجوه الاتفاق بين تاريخى المرأتين أن ظهر لكل منهما
في الأدب الذى تنتمى إليه عدوٌّ عنيد أعنى عليها بقوارص
الكلام : ففي العربية صب العرى جام نعمته على الحياة على المرأة
التي خيل إليه أن طباعها هى طباع الحياة الخائلة ، وفي الإنجليزية
ندم ملثون بالمرأة في كتاباته وأشعاره ، وأزّلها منزلة دون الرجل ،
ووصمها بالحق والخلل ، وجعل شخصية دليّة في قصته الشعرية
عن سمون الجبار مثال تلك المرأة . على أن مما له دلالة أن
ملثون كان فرداً يعبر عن أفكاره الفردية التي اكتسبها من
ظروفه التمسّة ولا يجد من حوله سميماً . بينما كان العرى ينبغ
نعيه في أوائل عهد انحطاط المرأة العربية واشتداد وطأة الحجاب
عليها ، فلا ريب أنه كان يجد آذاناً صاغية وأنه مسؤول عن
بعض ما حاق بها بعد ذلك من قهر وإهمال

وقد عرف الأدب العربى عنصرآ من النساء لم يعهده الأدب
الإنجليزى : هو عنصر الجوارى اللاتى كن يبرعن في الأدب
والوسيقى ومجتمعت إليهن الأدباء ويشيرون بهن ، ولكن الأدب
الحيزل الصحيح لم يستفد كثيراً من ذلك العنصر المترف التبدل ،
في حين أن أثر أولئك الجوارى في سقوط منزلة المرأة واضح محقق
ويمكن حصر الأدب المتعلق بالمرأة في اللغة العربية في أبواب
أربعة : النسيب ، وحوادث عظيمة النساء ، والتمدح بالغة
واحترام المرأة في عصرها الأول ، والنقض منها في عصرها المظلم
والتمدح بالغة وتوقير المرأة والتقرب إليها بمكارم الأعمال
من أنبل أغراض الأدب العربى وهو ضرب من القول ينفرد
به دون الأدب الإنجليزي ؛ وبديهي ألا يكون ذلك إلا في عهد
هلو مكانتها في النفوس ، ومنه قول مسكين الدارنى :

ما ضر جارى إذ أجاوره ألا يكون لبيتته ستر